"تحليلٌ سيميائيٌ للموكبِ الجنائزي" لجوزيف كورتيس - ترجمة و تقديم و مراجعة -

د.مختارية بن قبلية، جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم- الجزائر.
- البريد الإلكتروني: mbenkablia@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2018/08/04	تاريخ القبول:2018/11/22	تاريخ النشر:2018/12/26

الملخص :

نشأت السيميولوجيا الأوروبية من رحم اللسانيات، وبقيت لصيقة بها لمدة طويلة قبل أن يتلقّفها الحقل النقدي ليجعلها منهجا للتحليل، إلا أنّ ذلك لم يفصلها تماما عن المنهج الوصفي اللساني، حيث أعطاها **رولان بارت** كامل حقّها حينما لاحظ أنّ فهم أي علامة لا يتم إلا بواسطة اللغة، والعلامات باختلاف أنواعها لا تستغني عن المسميات، ومن هنا كانت فكرة تطبيق نتائج اللسانيات في تحليل الخطاب السيميائي الذي وصل إلى أوج عطائه على يد أصحاب مدرسة باريس، ولعل ما فعله جوزيف كورتيس (**Joseph Courtès**) أثناء معالجته للموكب الجنائزي (علامة دينية) أو حتى لظاهرة الإضراب أو اجتماع أولياء التلاميذ (علامات اجتماعية) أو للقصص الشعبية والروايات الأدبية... خير دليل على تطوّر الحسّ السيميائي لدى الباحثين؛ حيث عمد كورتيس إلى طرح بعض التساؤلات من مثل إمكانية وضع نظام لكل خطاب غير لساني مما يشبه النحو والصرف، وهذا ما يقتضي دراسة الجانب التركيبي والاستبدالي للعلامات، بالإضافة إلى تساؤلات أخرى كثيرة سأعمل على مناقشتها أثناء ترجمة ومراجعة نصوص من كتاب: **Analyse sémiotique du discours: de l'énoncé à l'énonciation** (تحليل سيميائي للخطاب – من الملفوظ إلى التلفظ) الذي أراد له صاحبه أن يكون امتدادا لكل الدراسات التي سبقته، دون أن

يتعارض معها، وفي الوقت نفسه؛ نجده يُقرّ بأنّ ما جاء في هذا المؤلَّف هو مجرّد أعمال نموذجية تطبيقية في شكل فرضيات قابلة للمناقشة، فهل كان جوزيف كورتيس محقا في كل ما افترضه في تحليله للموكب الجنائزي من الناحية اللسانية والاجتماعية؟ وهل تمكّن في الأخير من مجاراة رولان بارت في انطلاقه من أي خطاب لساني أو غير لساني للوصول إلى خطاب أدبي إبداعي؟

الكلمات المفتاحية: مدرسة باريس، تمفصل، تعبير، مضمون، شكل، جوهر، المنهج الوصفي، خطاب لساني، خطاب غير لساني.

Astract:

European semiotics is the result of linguistics, and it has stuck to it for a long time before joining criticism as a method of analysis. But this has not completely separated him from the descriptive linguistic method, because Roland Barthes noted that the understanding of signs is determined by language, and all kinds of signs are associated with designations (denominations) The idea of applying the results of linguistics in the semiotic analysis of the discourse that has succeeded thanks to the members of the Paris school, and in particular (Joseph Courtès) who analyzed: the funeral procession (religious sign), the phenomenon Of the strike, a meeting of "parents of pupils" (social signs), popular stories or literary novels, where Courtès questioned the possibility of establishing a system for each non-linguistic discourse, Is closer to grammar ... and this will be what I will try to discuss by translating and revising the texts read from the book: **Analyse sémiotique du discours: de l'Enoncé à l'énonciation** (Semiotic Analysis of Discourse: from the Statement to the Enunciation).

Mots clés*:* Paris school, articulation, expression, content, form, substance, descriptive approach, linguistic discourse, non-linguistic discourse.

تعتمد أعمال مدرسة باريس –عموما– وجوزيف كورتيس –على وجه الخصوص– على تحليل خطاب النص بنيويا بطريقة المحايثة التي تعود إلى دو سوسير؛ حيث تخضع الدلالة لقوانين داخلية خاصة مستقلة عن المعطيات الخارجية[1]، وهذا ما نجده في كتاب "محاضرات في الألسنية العامة"؛ حيث يشرح صاحبه الفكرة عن طريق التمثيل بلعبة الشطرنج التي لا يتطلب فهم نظامها معرفة بتاريخها وأصولها بل بعدد القطع الخشبية وطرق تحريكها وما شابه ذلك من أمور داخلية[2].

وانطلاقا من فكرة إقصاء المرجع (المعطيات الخارجية)؛ لم يَمِل تفكير كورتيس إلى فكرة سيمياء التواصل، لذلك نجده متأثرا بمبادئ سيميائية الدلالة التي وضع معالمها غريماس في دراساته وأبحاثه العديدة؛ وخاصة في كتابه "في المعنى Du sens"، ومن هنا اعتمد على المقاربة الوصفية العلمية الرصينة التي تتكئ على الاستقراء والاستنباط منتقلا من مستوى إلى آخر جامعا بين التصور المنهجي والتحليل التطبيقي بشكل تعليمي بيداغوجي[3].

ترتكز طريقة المحايثة في الأساس على دراسة شكل المضمون للوصول إلى المعنى الذي يُبنى من خلال لعبة الاختلافات والتضاد، وتكون بذلك قد تجاوزت بنية الجملة إلى بنية الخطاب. ولا يصبح للمرجع حينها أي أهمية مذكورة، وبالتالي لا داعي للاهتمام بالمؤلِّف بل الأهمية الكبرى تتجه نحو كيفية إنتاج النص؛ أي "كيف قال النص ما قاله"، أما عن طريقة تحقيق هذا الهدف فهي تلك التي اعتمدها لويس يلمسلف* حينما شطر العلامة بشكل رباعي: شكل

[1] يراجع، بن مالك، رشيد، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط 2000م، ص 9.

[2] يراجع، دو سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة غازي، يوسف، والنصر، مجيد، ط 1986م، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص 37.

[3] يراجع، كورتيس، جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ترجمة حضري، جمال، يراجع تقديم الحمداوي، جميل، ص 11.

* لويس يلمسلف (1899م – 1965م) عالم لسانيات دانماركي، من أسرة تنتمي إلى الميدان العلمي، حيث كان والده مديرا لجامعة كوبنهاغن. أسس يلمسلف مع اللساني فيكو برووندال (1887م – 1942م) المدرسة الدانماركية (مدرسة كوبنهاغن) أو ما سماها بالغلوسيماتيك. ومن أهمّ مؤلفاته: كتاب "البروليغومان" (1965م).

التعبير وشكل المحتوى (المضمون) وجوهر التعبير وجوهر المحتوى (المضمون)[1]. ويكون ذلك وِفقا للمخطط الآتي[2]:

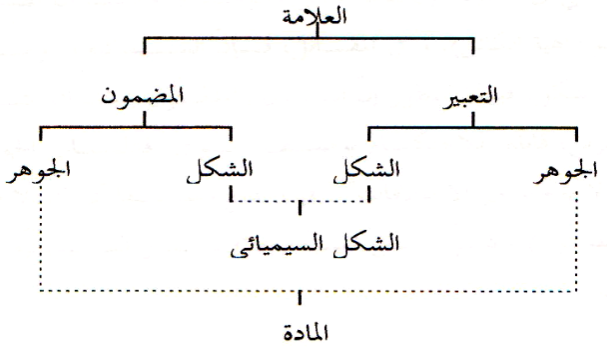

طبقا للمخطط السابق؛ يرى جوزيف كورتيس: إنّ الربط بين شكل التعبير وشكل المضمون –وهذا ما نسميه بالسيميوزيس أو الوظيفة السيميائية– هو الذي يعرّف العلامة، فإذا كانت تعليمات يالمسليف توافق تعليمات دو سوسير، فهذا الأخير كان يرى في العلامة علاقة افتراضية متبادلة بين الدال والمدلول –التي من خلالها نستخلص أنّ الدال ما هو في الحقيقة إلا دال لمدلول معيّن والمدلول مدلول لدال ما– ويكون بذلك قد فتح عدّة احتمالات جديدة مُؤسسة لأنواع أخرى من المقاربات[3]. وفي هذا المقام؛ ينبغي أن نضمّ إلى ما سبق جهود شارل

[1] تشبه العلاقة (جوهر/شكل) نوعا ما مثال الغرانيت الخام (=جوهر) الذي يَصنع منه النحّات تمثالا (=شكل)، وتطبيقها على العلامة يخلق أربعة مستويات هي: جوهر التعبير: هو الجانب المادي الخالص، كالحبر المستخدم في الرسم الإملائي (الكتابة)، أو الذبذبات الصوتية الفيزيائية الناجمة عن الجهاز النطقي. شكل التعبير: هو الجانب التنظيمي لجوهر التعبير. جوهر المضمون: هي الأفكار قبل خضوعها للنظام. مثلا: فكرة التحية (=جوهر المضمون)، أما شكل هذه الفكرة (=شكل المضمون) فيختلف باختلاف المرسل، كأن يقال: "السلام عليكم" أو "صباح الخير" أو "مرحبا"...
شكل المضمون: هو المعنى. يُراجع، المرجع نفسه، ص 10. ويُراجع تفصيل ذلك أيضا –على سبيل المثال– في: اللّسانيات (النشأة والتطور)، مومن، أحمد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 2005م، ص 162.

[2] Courtès, Joseph, Analyse sémiotique du discours: de l'énoncé à l'énonciation, paris, Hachette, 1991, p 24 .

[3] المرجع نفسه ص 25.

ساندرس بيرس[1] وتصنيفية العلامات التي اقترحها، فمثل هذه البحوث قد فرضت نفسها عند الجماعة العلمية، وربما هي التي سمحت لنا باتباع اتجاهات جديدة. فالآن لم نعد نهتم بالعلامات نفسها بالدرجة الأولى بل بمكوّناتها[2].

تأثّر جوزيف كورتيس كثيرا بفكرة يالمسليف التي تتلخّص في التمييز بين مستويي اللغة، والتي أدّت إلى التجديد في مسار هذا العلم، حيث خلّصت الدلالة من ارتباطها بالعلامة (اللسانية)، وجعلتها بذلك مستقلة ذاتيا، مشكّلة منها إبستيمولوجيا مادة تعليمية خالصة. وقد اعتمد على هذه النتيجة الجديدة الكثير من الباحثين من أمثال: أبرسيان (J. D. Apresjan) وغريماس (A. J. greimas) وكاتز (J. J. Katz) وفودور (J. A. Fodor) وبوتييه (B. Pottier) وأولمان (S. Ullmann) وويتريش (U. Weinreich)، فمهما كانت وجهات نظرهم مختلفة إلا أنّهم انطلقوا من القاعدة نفسها، وتركوا تلقائيا مستوى العلامات ليوجهوا اهتمامهم إلى دراسة عناصرها المكوّنة، وبالأخص مستوى المضمون؛ ومن هنا يمكن أن ننعتهم بالسيميائيين[3].

إنّ المتأمّل لأي دراسة بنيوية يُمكنه أن يكتشف بروز فكرة الثنائيات بشكل كبير، ولعل ذلك ناجم في الأساس من استغلال ظاهرة الاستبدال، و"كان (كلود ليفي ستراوس) الأول الذي لفت انتباه الباحثين إلى وجود إسقاطات استبدالية تغطي السير المركبي للحكاية البروبية، وأكّد على ضرورة إجراء مزاوجات بين الوظائف. وبالفعل، يمكن للملفوظات السردية أن تُزاوَج ليس بسبب الجوار النصي بل حتى إن كانت هناك مسافة بينها، وأيّ ملفوظ يمكنه أن

[1] (Charles Sanders Peirce) (1839م – 1914م) هو مؤسس الواقعية الفلسفية (البراغماتية الفلسفية = الذرائعية = التداولية)، ومؤسس المنطق الرياضي (الرمزي)، ابن عالم الرياضيات "بن يامين بيرس"، وضع الأسس الفلسفية للسيميوطيقا في مجموعة من المقالات أواخر 1860م. تُراجع تفاصيل أخرى عن سيرة بيرس الذاتية والعلمية في: علم العلامات، كوبلي، بول، وجانز، وليتسا، ترجمة: الجزيري، جمال، مراجعة وإشراف وتقديم: عبد الفتاح إمام، إمام، ط 01، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 24، ... 27.

[2] Courtès, Joseph, Analyse sémiotique du discours: de l'énoncé à l'énonciation, p 26.

[3] المرجع نفسه، ص 26، 27.

يستدعي –أو يتذكّر– ضديده الذي طُرح سابقا، كما أن وحدات سردية جديدة – منقطعة بالنسبة لنسيج الحكاية، ولكنها مشكلة من علاقات استبدالية تقرب بين مسنداتها –وظائفها– تظهر هكذا على شكل أزواج من نمط:

/مغادرة/ عكس /رجوع/

/إيجاد الافتقار/ عكس /القضاء على الافتقار/

/إقامة الحظر/ عكس /كسر الحظر/..."[1] وهذا ما حاول كورتيس بدوره تطبيقه على علامات من الواقع بحيث يجعلنا نعيش أحداثها وكأنّها قصص تُروى للشهود.

أما رولان بارت* فيشرح لنا طريقة عمل الثنائيات الاستبدالية في قوله: "يتم تقطيع النص اللامتناهي في اللسانيات بواسطة الاختبار الاستبدالي، وقد وُجد هذا المصطلح الإجرائي عند تروبتسكوي أوّلا، لكن الذي رسّخه وأقرّه هو يالمسلف وأولدال Uldall في المؤتمر الخامس لعلم الأصوات سنة 1936م. ويكمن الاختبار الاستبدالي في إحداث تغيير اصطناعي على صعيد العبارة (الدوال) ثم رصد ما إذا كان سيترتب عن هذا التغيير تعديل متلازم معه على صعيد المحتوى (المدلولات)؛ ويتعلّق الأمر عموما بخلق تماثل اعتباطي أيْ جدول مزدوج في موضع ما من «النص اللامتناهي» للتحقق مما إذا كان استبدال دال بدال يؤدي حتما إلى استبدال مدلول بمدلول؛ وإذا كان استبدال دالين يؤدي إلى استبدال مدلولين فإنّه من المؤكد أننا في ذلك الشطر من المُرَكَّب الخاضع للاختبار، إزاء

[1] كورتيس، جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ترجمة حضري، جمال، ص 19، 20.

* رولان بارت (1915م): هو كاتب وناقد فرنسي، ذيع صيته في فرنسا وخارجها، أخذ شهرته من معرفته الشاملة، فكان صاحب حسّ فني وقدرة علمية على خوض ميادين معرفية عديدة؛ كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والأونثروبولوجيا وغيرها، بدأ النشر في الأربعينيات من القرن الماضي، ولم يتوقف حتى وفاته في 1980م. وله مجموعة من المؤلفات، أهمّها: عناصر السيميولوجيا، والكتابة في درجة الصفر، والنقد البنيوي للحكاية، ولذّة النصّ، وهسهسة اللغة، وأسطوريات، وبارت بقلم بارت (سيرته الذاتية).

وحدة مركبية"[1]. وهذا ما سنكتشفه من العمل التطبيقي الذي نحن بصدد ترجمته ووصفه.

يرى يالمسليف إنّ عنصرين من نموذج ينتمي إلى مستوى التعبير (أو الدال) قابلان للتبادل (أو ثابتان) إذا اقتضى تغيير أحدهما بالآخر تغييرا مماثلا في مستوى المضمون (أو المدلول). وفي المقابل، يكون عنصران من نموذج للمضمون قابلان للتبادل إذا اقتضى تغيير أحدهما بالآخر تغييرا مماثلا في التعبير. ويوضّح جوزيف كورتيس: إنّ الإبدال هو عكس الاستبدال؛ إذ يمكننا القول إنّ عنصرين لمستوى التعبير (أو المضمون) قابلان للاستبدال إذا لم يُحدث تغيير أحدهما بالآخر أيّ تغيير علائقي على مستوى المضمون (أو التعبير)، والعكس صحيح، فالترادف مثلا يتعلق بعملية الاستبدال[2].

ولإيضاح نوع تلك العلاقات الممكنة بين التعبير والمضمون؛ يرى جوزيف كورتيس إنّه من الضروري تحليل موضوع سيميائي محسوس، والذي يمكن أن يُعبّر عن تجربة أي شخص منا؛ ليختار الموكب الجنائزي مثلما كنّا نجده في شوارع فرنسا في القرنين 19 و20، قبل أن يعُمّ فيها استعمال السيارات في الجنائز (خاصة في المدن). فمحاولة الوصف ستوَجَّه نحو الناس الذين يتبعون عربة الميت فقط، دون اعتبار أطفال الجوقة ورجال الدّين الذين يُشكّلون مقدمة الموكب، لأنّ هذا سيدفع الدارس إلى شرح علاقات أخرى أكثر تعقيدا، ولاسيما ما تعلق منها بالجانب الأنثروبولوجي، والتي –في رأي كورتيس_ لا تهمّ المحلل. ولعلّنا نفهم من هنا أنّه كان يتفادى الحديث عن الأمور الدينية التي من شأنها أن تجعل الموكب مختلفا بين الشعوب على اختلاف عقائدهم فتكون دراسته قاصرة؛ خاصة أنّه يتحدّث عن ظاهرة منتشرة –على حدّ رأيه– في جزء كبير من مدن

[1] بارت، رولان، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم البكري، محمد، ط 2، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 1987م، ص 102.

[2] Courtès, Joseph, Analyse sémiotique du discours: de l'énoncé à l'énonciation, p 29.

البحر الأبيض المتوسط، ومن بينها المغرب العربي[1]. وما يهمنا من الموكب إذا هو:

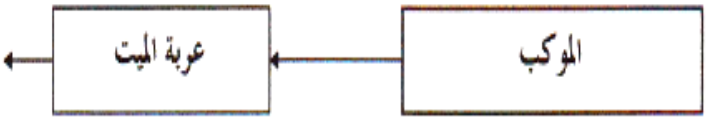

في البداية يجب أن نعدّ الموكب "لغةً"، بمعنى أنّ الذي يدل عليه (=المضمون) من طبيعة مغايرة للذي يدل به (=التعبير). فهناك وضعية الناس في شكل موكب وهذا ما يشكّل الدال، وهناك معنى عميق يُفهم بعد ذلك. فإذا اعتبرنا أوّلا موضع الناس بالنسبة للميت (داخل العربة)، نستطيع أن نلاحظ التناقض الموجود في المجموعة الاتصالية للموكب حسب العلاقة /قريب/ عكس /بعيد/. وهذه الوضعية لعناصر الموكب (قريب/ بعيد) من تخصص الدال (التعبير). وهي متّصلة من ناحية المدلول بالعلاقة الاجتماعية التي تربط أفراد الموكب بالفقيد؛ فبعد التابوت نجد أوّلا المقرّبين من أهله، ثمّ بالتدريج الأقارب البعيدين، ثمّ يأتي بعدهم بالترتيب الأصدقاء والمعارف، وأخيرا –كما يحدث في الغالب– ممثلو كلّ عائلات القرية، ومن الطبيعي ألاّ نجد أحدا من أهل الميت في مؤخرة الموكب. وليس من اللائق أيضا أن يتقدّم شخص من المعارف مباشرة وراء العربة*. فكما نرى هنا: الفضاء مستخدم للتحدّث عن شيء آخر غير المكان، وهو طبيعة الرابط الاجتماعي الذي يجمع أعضاء الموكب، فالدال الفضائي يُوافقه بذلك مدلول اجتماعي؛ وهنا نجد أوّل موافقة ممكنة، وهي[2]:

[1] يراجع، المرجع نفسه، ص 29، 30.

* يبدو أنّ كورتيس حاول إلغاء ما له علاقة بالعادات المسيحية من التحليل دون جدوى، فمسألة التقديم والتأخير في ترتيب أعضاء الموكب الجنائزي تبقى دون أي أهميّة بالنسبة للموكب الجنائزي في المغرب العربي.

[2] يراجع، المرجع نفسه، ص 30.

قريب ـــــ صلة اجتماعيّة ضيّقـــــة
≅
بعيد ـــــ صلة اجتماعيّة واسعـــــة

لنترك عربة الميّت ولنعالج فقط الموكب الذي يتبعها، فإذا اعتبرنا هذا جوهرا للتعبير، يمكننا أن نرى في الوضعية الفضائية للمشاركين فيما بينهم (وليس تجاه الميت) شكلا للتعبير. فالشاهد الذي يرى مرور الموكب يستخلص في الواقع شبه تناقض جدّ ملحوظ بين الصفوف الأولى والصفوف الأخيرة: ففي مقدمة الموكب نلمس قربا بين الناس؛ ففي الاتجاه الطولي الصفوف متقاربة، وفي الاتجاه العرضي مرافق أعضاء الموكب متجاورة، في حين نجد الاتساع في مؤخرة الموكب سواء بين الصفوف أو بين أشخاص الصف الواحد، فتتشكّل لدينا الثنائية /ضيق/ إلى /اتساع/1.

وتبعا لما سبق نكتشف أنّ المقدمة تتسم بقلّة الحركة، سواء من حيث طريقة السير أو حتى من حيث تحريك الرأس مثلا، بينما نلاحظ في المؤخّرة حركة واضحة. كما نسجّل تناقضا آخر بين /الصمت/ في الصفوف الأولى، والضجيج في الصفوف الأخيرة، أما في الوسط فتتدرج الأمور. ويمكننا أيضا أن نسِمَ المقدّمة بـ /البكاء/ في حين نتوقع أحيانا وجود /الضحك/ في المؤخرة: فنحن نعلم أنّه قد يحدث أن نسمع في ذيل الموكب أحدهم يحكي بصوت عال مآثر الفقيد... ثمّ نضيف ملاحظة أخرى على المستوى البصري وليس الصوتي: فبالنسبة للّباس؛ يظهر في الصفوف الأولى باللون /الأسود/ (الذي يشكل مع الأبيض /اللّالون/)، بينما تبدو الصفوف الأخيرة ملوّنة، لكن كلّما اتجهنا نحو الوسط وجدنا صبغات وسطية، حيث يتقدّم في الغالب الرمادي على الألوان الرَزان* غير الجذابة1. وهنا نكون قد وصلنا إلى اكتشاف كل التناقضات الممكنة

[1] يراجع، المرجع فسه، ص 31.

* = مؤنث رَزين.

والمرتبطة بالحيّز المكاني مقدّمة/مؤخرة وهي ناجمة من ممارسة طقوس وتقاليد صارمة سنّتها الثقافة الفرنسية.

(مقدّمة)	عكس	(مؤخّرة)
الضيق	عكس	الواسع
أقلّية من الحركة	عكس	الحركة
الصّمت	عكس	الضّجيج
البكاء	عكس	الضّحك
الأسود	عكس	اللون

إنّ ما قلناه سابقا –في الحقيقة– لا يمثّل سوى مستوى التعبير (الدال) بالشكل الذي سجّلته عيْنَا وأُذُنا الشاهد، وهنا تُطرح مباشرة مسألة المدلول الموافق للدال، حيث يقترح كورتيس تفسيرين دلاليين مختلفين:

التفسير الأول واضح، فإذا عُرف جوهر المضمون عموما كشيء مثل "الوجود البشري"، يكون الشّكل العام للمضمون موافقا للتناقض /حياة/ عكس /موت/، ومن الواضح أنّ الموت يناسب جيّدا الموكب "الجنائزي"؛ ومن هذا المنطلق فإنّ: /الضيق/ و/الأقلّية من الحركة/ و/الصمت/ و/البكاء/ و/الأسوَد/ تمثّل قواعد دالة على فكرة الموت. وهنا نلاحظ أنّ هذه الدوال قابلة للاستبدال فيما بينها، فليس من الضروري وجودها جميعا للتعبير عن /الموت/. والحديث عن الموت لا يكون ممكنا إلا بالرجوع إلى /الحياة/، وما قلناه عن المقدّمة ينطبق على المؤخرة؛ ف/الاتساع/ و/الحركة/ والضجيج/ و/الضحك/ و/اللون/ هي دوال قابلة للاستبدال فيما بينها، وهي متعلّقة بالمدلول نفسه. وبذلك نفهم بشكل أفضل طبيعة العلاقة الموجودة بين مستويي اللغة، أي التعبير والمضمون: فإذا انتقلنا من

[1] يراجع، المرجع نفسه.

نموذج إلى آخر على مستوى الدال مثلا (من العمود "أ" إلى العمود "ب" أو العكس)، سنكون مجبرين تلازميا على القيام بالتغيير نفسه على مستوى المدلول[1]:

	أ		ب
الدال (التعبير)	الضيق	عكس	الواسع
	قلة الحركة	عكس	الحركة
	الصمت	عكس	الضجيج
	البكاء	عكس	الضحك
	الأسود	عكس	اللون
المدلول (المضمون)	الموت	عكس	الحياة

بعد هذا، يُعيدنا كورتيس إلى الحيّز المكاني ليضيف ملاحظة أخيرة خاصة بمستوى التعبير، حيث يمكن للمحور /الطولي/ المتعلق بالموكب أن يتمفصل حسب /أعلى/ عكس /أسفل/ بالنسبة لعربة الميت، ويتعلّق ذلك بجميع أعضاء الموكب، والانتقال على المحور انطلاقا من عربة الميت الذي يحدّد موضع كلّ واحد بالنسبة لـ /الموت/ بحسب كونه /بعيدا/ أم /قريبا/: فمن وجهة النظر هذه؛ الموكب هو جنائزي بأكمله وعلى طوله، ومن وجهة ثانية، فالمحور /العرضي/ –المرتبط بـ /الحياة/– هو أقل إدراكا في مقدّمة الموكب، بينما يتقلّص فيها إلى الحدّ الأقصى في الصفوف الأولى، وبالمقابل فهو يظهر لنا بشكل أفضل عندما يتّسع في مؤخرة الموكب: فجميعنا ينتبه إلى الكلام المتبادل في الصفوف الأخيرة على المحور العرضي (يسار/ يمين) الذي هو أكثر منه على المحور الطولي (أعلى/ أسفل)، وكأنّ الناس في هذه الحالة الأخيرة يشعرون بشيء من الاحترام نحو الميت الذي يرافقونه، وكذا بالنسبة للثرثارين منهم[2].

[1] يراجع، المرجع نفسه، ص 32، 33.

[2] يراجع، المرجع نفسه، ص 33.

إذا كان المحور /الطولي/ أكثر قابلية للإدراك في /مقدّمة/ الموكب، والمحور /العرضي/ في /المؤخّرة/، فإنّ كل شخص يتبع العربة يحدد فضائيا بهذين المحورين: ففي بعض الأماكن التي لاحظناها، نجد أنّ الموكب لا يرتبط بـ /الموت/ فحسب، وإنّما يرتبط بـ /الحياة/، فعلى المستوى الأخلاقي: صحيح أنّ البعض قد يُصدم في هذه الحالة بتصرّفات أعضاء مؤخرة الموكب الجنائزي التي نراها غالبا في الأرياف الفرنسية، ومع ذلك فإنّ تظاهرة /الحياة/ هذه –والتي يجدها البعض شديدة الضجّة وغير لائقة– تبدو ضرورية: ففي الأخير، الوجود الإنساني مكوّن في آن واحد وترابطيا من /الحياة/ و/الموت/؛ فالموكب لا يكون جنائزيا إلا بالنظر إلى الميت الذي سيدفن، ولكنّه يبقى مكوّنا من أحياء[1].

ونجد بالتوازي مع الثنائية حياة/موت –الواقعة على المستوى التطبيقي والمتعلّقة بالإدراك الحسّي– ثنائية ضدّية أخرى يمكننا أن نربطها بالسابقة، وهذه الثنائية الجديدة تُكوِّن على المستوى العميق تفسيرا آخر ومدلولا آخر للموكب الجنائزي، وهو من نوع انفعالي: ويتعلّق الأمر بالثنائية: فرح/حزن[2].

		أ		ب
التعبير		الضيق	عكس	الواسع
		الأقلية من الحركة	عكس	الحركة
		الصمت	عكس	الضجيج
		البكاء	عكس	الضحك
		الأسود	عكس	اللون
المضمون	المضمون1	الموت	عكس	الحياة
	المضمون2	الحزن	عكس	الفرح

[1] يراجع، المرجع نفسه.

[2] يراجع، المرجع نفسه.

بذلك فإنّ /الضيق/ و/الأقلية من الحركة/ و/الصمت/ و/البكاء/ و/الأسوَد/؛ المتعلّقة بعلاقة التبادل هي صفات مرتبطة بـ /الحزن/، تماما مثلما نجد /الاتساع/ و/الحركة/ و/الضجيج/ و/الضحك/ و/اللون/ تمثّل الفرح.

والملاحظ هو أنّ بين الفرح في الصفوف الأخيرة والحزن في الصفوف الأولى توجد تناقضات بينية، بحيث إذا كان أهل الميت في /حزن/ فإنّ الأصدقاء يكتفون بالظهور بوجه رزين فقط، وهنا تظهر التدرّجات المختلفة الممكنة، فالانتقال من قطب إلى آخر لمستويي التعبير والمضمون يكون بالتدرج: فالابتسامة مثلا تسبق الضحك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا نجد علاقة مُقابلة بين مثل هذا الدال وهذا المدلول: فإذا ربطنا على سبيل المثال /البكاء/ بـ/الحزن/ في هذه الحالة، فقد يكون في حالة أخرى مرتبطا بـ/الفرح/، كقولنا مثلا: "يبكي من الفرح"، ألم يكن باسكال يقول: "فرح، فرح، بكاء الفرح"، وبالعكس، فقد تعوّدنا دائما على ربط الضحك بعبارة الفرح*، ولكن لا يكون ذلك في كل الأحوال، فقد نجد مثلا عبارة: (ضحك أصفر)، وبعبارة أبسط؛ فإنّنا قد نجد الدال نفسه يحمل عدّة مدلولات، وذلك حسب السياق الذي يرد فيه، وهنا نجد ما تسميه اللسانيات التقليدية بالمجانسة، سواء أكانت صوتية أم كتابية[1].

وبالمعنى العكسي، وكما لاحظنا فيما يخص إمكانات الاستبدال، فإنّ المدلول نفسه يمكنه أن يُفهم انطلاقا من دوال مختلفة (تماما مثلما هو في حالة الترادف)، فالعنصر الذي ندركه على الفور في اختبارنا للموكب الجنائزي هو التمفصل المكاني حسب العلاقة "مقدمة/مؤخّرة"، ومن هذا المحور المكاني، نستخلص محورا زمنيا ينطلق من /البداية/ إلى /النهاية/: وبذلك يمكننا أن ندرس على سبيل المثال "الوليمة الجنائزية"، لأنّ التقاليد الفرنسية تكشف عن تقارب بين تحضيرات الموكب الجنائزي ومجرى الوليمة الجنائزية، مما يُثبت المقارنية

* يستشهد جوزيف كورتيس هاهنا بمعنى الفرح في معجم Le Petit Robert: ما يدل على الفرح هو اتساع فتحة الفم.

[1] يراجع، المرجع نفسه، ص 34.

السيميائية: ففي /بداية/ الوليمة و/مقدمة/ الموكب، الحزن جليّ، والصّمت مخيِّم، ثمّ يُكسر الصمت تدريجيا –أثناء الوليمة (أو بالتوجه نحو المؤخرة)– ونبدأ في سماع الأصوات تدريجيا، ففي البداية تكون الأصوات خافتة ثم تصبح مجهورة مسموعة، أما /البكاء/ في بداية الوليمة (أو الموكب) فتعقبه نظرات متبادلة سرعان ما تُصبح بعد ذلك ابتسامات ترمز للحياة، وليس من النادر أن نجد في القرى الفرنسية ولائم جنائزية تنتهي بجوّ مفعم بـ /الفرح/... وسواء تعلّق الأمر بالموكب الجنائزي أو بالوليمة الجنائزية المنسوبين إلى /الموت/، فإنّ الكلمة الأخيرة التي نجدها فيهما تعبّر عن العكس، وهي /الحياة/[1].

وانطلاقا من كل ما تقدّم من وصف للموكب الجنائزي؛ يمكننا القول إنّ تلك الفكرة نشأت من الاهتمام الكبير بالشكل الذي هو عبارة عن افتراض لوجود شبكة من العلاقات والبنيات المتعلّقة بمستوى التعبير أو مستوى المضمون، وقد تمكّن كورتيس من تحليل هذه الظاهرة العقائدية بعد انتقاله من المجموعة الاتصالية للموكب إلى مفصلتها بحسب علاقات التناقض والتضاد، ولم يصل إلى المعنى إلا بعد إدراك لعبة الاختلافات التي تعلّمها من فاردينان دو سوسير، وبطبيعة الحال؛ تكون مفصلة المجموعة الاتصالية (الجوهر البيلمسليفي عديم الشكل) عن طريق افتراض وحدات قابلة للتمفصل على قدر الإمكان. وهذا ما جعل كورتيس يُصرّ على وجود ميزة أخرى للغة: فبالإضافة إلى كون الموكب ثنائي المخطط (دال/مدلول أو تعبير/مضمون) نجده أيضا قابلا للتمفصل؛ مما يُسهّل عملية تحليله، وكذا إمكانية تقطيعه إلى عناصر مكوّنة، ويكون ذلك على مستوى الدال، والأكثر من ذلك على مستوى المدلول. ويُصبح الموكب الجنائزي الذي يمثّل مجموعة اتصالية شبيها بالجملة، فهو من جهة ناجم عن لغة غير لسانية خاصة وخاضعة لقوانين معروفة، وهو من جهة أخرى قابل للتمفصل إلى وحدات مثلما تتمفصل الجملة إلى كلمات؛ فكلاهما يخضع إلى النظام الخطي

[1] يراجع، المرجع نفسه، ص 35.

الذي يجعل الوحدات تأخذ مكانها وفق الترتيب الذي يفرضه المعنى المطلوب. ويمكننا توضيح هذا الترتيب في رسم توضيحي تظهر فيه على الأقل بعض الدوال البصرية من مثل: اللون/الأسود، والضيق/الاتساع:

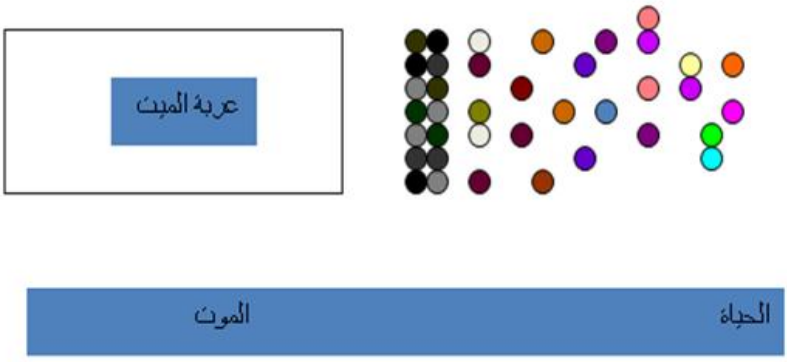

ومن هنا، تكون الدوال الرئيسة مرتّبة مع مدلولاتها وفق الثنائية "مقدمة/مؤخرة" بالشكل الآتي:

المقدمة	المؤخرة
الدوال	الدوال
■ الضيق.	■ الاتساع.
■ الأقلية من الحركة.	■ الحركة.
■ الصمت.	■ الضجيج.
■ البكاء.	■ الضحك.
■ الأسود.	■ اللون.
المدلولات	المدلولات
■ الموت.	■ الحياة.
■ الحزن.	■ الفرح.

يؤكّد كورتيس على أنّ أنموذجه المدروس يبقى أكثر أهميّة من أي توضيح لساني محض بفضل الوصف البسيط والأساسي، كما أنّ الصفة الخطية تبدو جلية إلى حدّ كبير عند دراسة الموكب، حيث يمكننا تمييز طبيعته التطوّرية

(التعاقبية)، وتبقى كل خطوة من خطواته متميّزة ومتعلّقة بالتي تعقبها أو تسبقها، وعليه نستخلص –مثلا– التوزيع التالي[1]:

المقدمة	الموكب	المؤخرة
بكاء	عكس	ضحك

	(الأولوية للمحور الطولي الموجه للميت)		(الأولوية للمحور العرضي الموجه للأحياء)	
الدال:	**بكاء**	**وجوه رزينة**	**وجوه هادئة**	**ابتسامات/ ضحك**
المدلول:	**/حزن/**	**/رزانة/**	**/هدوء/**	**/فرح/**

ونفهم أخيرا أنّ دراسة الخطاب المرسل من طرف عناصر الموكب الجنائزي لا تختلف عن دراسة أيّ خطاب لساني، حيث تتحّد العلامات الجزئية مع بعضها البعض مكوّنة بنية واحدة متماسكة هي أساس أي دراسة بنيوية، وإذا ركّزنا جيّدا فيما قام به كورتيس، سنجد أنّه توصّل فعلا إلى اكتشاف الأنظمة التركيبية المتحكّمة في الموكب (ما يشبه النحو والصرف)، وكان ذلك وفق المنهج اللساني السوسيري، حيث عمد في البداية إلى اقتراح نماذج حقيقية لعلم الصرف، وهذا بفضل مَفْصلة الوحدات الاتصالية القابلة للعزل، أما التحليل الوصفي المستمرّ والذي يمكن أن نسمّيه بعلم النحو، فهو كفيل بتحليل وضعية كل وحدة بالنسبة للأخرى. فالموكب الجنائزي إذا ليس مجرّد لعبة تناقضات متواجدة على المستوى الاستبدالي وحسب، وإنّما هو أيضا قصّة على المستوى النحوي التعبيري، تُروى للمارّة. فمن /الحزن/ إلى /الفرح/ يوجد منحى يتقيّد بقواعد خاصة، فمن الصعب أن نتخيّل توزيعا عكسيا للموكب، بحيث تكون /المقدّمة/ مرتبطة بـ/الضحك/ و/الفرح/، و/المؤخرة/ متعلّقة بـ/البكاء/ و/الحزن/؛ ففي هذه الحالة

[1] المرجع نفسه، ص 35.

سننطلق من /الحياة/ إلى /الموت/. لكن الحقيقة تقول: إنّ الموكب الجنائزي يبدأ من /الموت/ وينتهي بـ/الحياة/: وهذا الاتجاه ليس بلا دلالة، فهو يشبه القصص العجائبية تماما، حيث نجد الحبكة تبدأ بحالة محزنة ومعقّدة، وتنتهي بنهاية فيها نوع من الرضى، على عكس بعض القصص التي تنطلق من البداية بالسعادة، وتختتم في النهاية بالتعاسة... فموكبنا الجنائزي هو في النهاية حكاية تنتهي بفرح[1].

هكذا تمكّن كورتيس من إلقاء الضوء على أنواع خطابٍ لم نألف تحليل مثلها سيميائيا، بل وتمكّن انطلاقا من تطبيقاته من دعم نتائج اللسانيات وتبسيطها، ومن بين ما بسّطه هاهنا مصطلحات: الصفة الخطية، والتبادل، والاستبدال، والجوهر، والشكل، والتعبير، والمضمون،... كما وضّح طريقة عمل النظامين الصرفي والنحوي، بل وأثبت أنّ اللسان البشري ليس الوحيد الذي يخضع لمثل هذه الأنظمة. أما فيما يخصّ الجانب الاجتماعي ومن ثمّ الجانب الأنثروبولوجي والعقائدي، فنلاحظ أنّ تشبيه كورتيس للموكب الجنائزي في المغرب العربي بذاك الذي نجده في أرياف فرنسا في الفترة التي عيّنها لم يكن صائبا إلا من حيث الاستغناء عن وسيلة النقل الحديثة، والاكتفاء بالسير على الأقدام، أما ما تعلّق بترتيب أعضاء الموكب، أو ألوان ملابسهم، أو نسبة البكاء التي نجدها بالأخصّ عند النساء اللواتي لا تشاركن أصلا في الموكب الإسلامي، أو من حيث الصمت والكلام... وغيرها من الأمور، فالاختلاف واضح جدّا؛ إنّ الصفة الخطيّة لا تظهر بشكل واضح في النموذج الإسلامي.

[1] يراجع، المرجع نفسه، ص 37.

المصادر والمراجع:

1. Courtès, Joseph, Analyse sémiotique du discours: de l'énoncé à l'énonciation, paris, Hachette, 1991.

2. بارت، رولان، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم البكري، محمد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 2، 1987م.

3. بن مالك، رشيد، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط 2000م.

4. دو سوسير، فردينان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: غازي، يوسف، والنصر، مجيد، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ط 1986م.

5. كوبلي، بول، وجانز، ليتسا، علم العلامات، ترجمة الجزيري، جمال، مراجعة وإشراف وتقديم: عبد الفتاح إمام، إمام، ط 01، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م.

6. كورتيس، جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ترجمة حضري، جمال، يراجع تقديم الحمداوي، جميل.

7. مومن، أحمد، اللّسانيات (النشأة والتطور)، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005م.